العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٨٥)

من وحي نهج البلاغة
في الأخلاق والفلسفة والسياسة

إعداد
شعبة الدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

من إصدارات

العتبة العلوية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

- شعبة الدراسات والنشر -

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

www.imamali-a.com
info@imamali-a.com

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد واله الطاهرين.

بلغ كتاب نهج البلاغة من الأهمية ان جعل أقلام العلماء والأدباء تتلاقفه بالشرح والدراسة والتحليل بشكل واسع، إلا أنها بالرغم من كل ذلك لا زالت تقف على ساحل بحر زاخر من العلوم المتنوعة التي يحفل بها هذا السفر الجليل.

وعلى الرغم من كثرة تلك الشروح والدراسات وتعدد مذاهبها في التفسير والفهم، نجد أنه من المهم أن يتم التركيز على دراسة النظريات الكلية التي وردت في نهج البلاغة بشكل عميق، وهي دراسة ذات نتائج نافعة جدا لا توفرها الدراسات التي درجت عليها اغلب شروح نهج البلاغة المشهورة.

وصلب الدراسة التي نعنيها تقوم على جمع شتات الخطب والكلمات المتناثرة في نهج البلاغة التي تصب في موضوع معين، ومن ثم النظر فيها لاستيحاء ما يمكن استيحاؤه من مناهج وفوائد طرحها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وفق رؤيته الثاقبة ومنهاجه السديد.

لقد آثرنا في هذا الجهد المتواضع انتخاب نصوص معينة من نهج البلاغة، واستنطاق وحيها حول ثلاثة مواضيع أساسية في الفكر البشري، تأخذ حيزا مهما في مجال العلوم الإنسانية، وهي: الأخلاق والفلسفة والسياسة، لعل الأخوة المهتمين بدراسة هذا السفر العظيم يلحقونها بدراسات أوسع واشمل.

ومما تجدر الإشارة إليه، إننا قد قمنا بإدراج بعض النصوص من نهج البلاغة كاملة في مقام الاستشهاد، ولم نكتفِ بالإشارة إلى موقعها في المصدر، إيمانا منا بان قراءة تلك النصوص بطولها وهي مجمّعة في مكان واحد ـ اعتمادا على موضوعها المشترك ـ ابلغ في إفادة القارئ أثناء المطالعة، على انه لا غنى عن الرجوع إلى كتاب نهج البلاغة في متابعة كامل النصوص الأخرى المشار إليها والاستفادة منها أولا بأول، ومن الله تعالى نستمد العون والتوفيق.

المبحث الاول

من وحي "النهج" في الأخلاق

تمهيد:

إن الكثير من الناس سمع عن كتاب نهج البلاغة، إلا أن الكثير منهم لم يطلع على فحوى هذا الكتاب أصلا، ومنهم من قرأ نزرا يسيرا منه ثم أهمله، ومنهم من يتحرى من قراءته الأحداث التاريخية، ومنهم من يبحث فيه عن القضايا الفلسفية، ومنهم من يتابع فيه البدائع اللغوية..

إلا أن الملفت للنظر إهمال الكثير من القراء الجانب الأخلاقي في هذا الكتاب إلى حد كبير، فقلما تجد من الناس من يتابع في كتاب نهج البلاغة هذا الموضوع المهم والحساس.

إن الجانب التربوي والأخلاقي يشكل ـ دون مبالغة ـ ركنا اساسيا في كتاب نهج البلاغة، حيث يعد أول كتاب في التربية والأخلاق بعد القران الكريم، حتى أن الكثير من الخطب والكلمات التي ذكرت فيها الجوانب الفلسفية والتاريخية وما شابه قد اتخذت من مسالة تربية النفس وتزكيتها هدفا لها بشكل عام، وجميع الكتب التي ألفها علماؤنا الأعلام(رضوان

الله تعالى عليهم) التي تبحث في قضايا الأخلاق الإسلامية لا تصل في مقاصدها وفي طريقة بيانها إلى ما وصل إليه نهج البلاغة، لان نهج البلاغة هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وكفى بذلك دليلا قاطعا على ما ندعيه.

وقد تطرح هنا إثارة تقول: إن المسلم الذي يريد أن يخوض في القضايا التربوية لتهذيب أخلاقه على ضوء تعاليم الشريعة السمحة، يحتاج إلى تبويب في البحوث وتسلسل في المقاصد، حتى يسير بخطوات مدروسة نحو تزكية نفسه خطوة اثر أخرى بشكل منهجي، وهذا ما تطرحه مؤلفات علماء الأخلاق بشكل واضح، بينما يفتقر نهج البلاغة إلى ذلك، حيث تجد أن فيه خطبا وحِكما في الأخلاق مبثوثة هنا وهناك دون تبويب وتنظيم، الأمر الذي قد يربك السائر على هذا الطريق، فتكون قراءة تلك المؤلفات في هذا المجال أولى.

وهذا الإشكال يرتفع فيما إذا نظرنا إلى طبيعة كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فان كل خطبة ألقاها وكل حكمة قالها وكل وصية كتبها تمثل في حد ذاتها منهجا شافيا وعلاجا ناجعا يزكي النفس وينقي الروح ويطهر القلب، لما لكلامه من سحر غريب في تناسق المقاصد وترابط المعاني وفصاحة الألفاظ، فان قائلها باب مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو اعلم بما يؤثر في النفس ويصلحها.

ثم إن هذا الإشكال لو كان صحيحا لجرى تفضيل قراءة تلك المؤلفات على قراءة القرآن الكريم، لان القرآن لا يطرح القضايا التربوية على أبواب وفصول مرتبة، وإنما تجدها مبثوثة بين آيات القرآن الكريم هنا وهناك.

على أننا لا ندعو إلى إهمال قراءة المؤلفات الجليلة التي ألفها العلماء في هذا الباب، ولكننا نقصد أن يوليها الإنسان الدرجة الثانية من الاهتمام بعد كتاب الله ونهج البلاغة، فتكون قراءة تلك المؤلفات من باب التفسير لما أشكل من فهم بعض مقاصد القران الكريم والنهج، أو للاستزادة من بحر علم الأخلاق الفضيل.

ولكي يستفيد القارئ من نهج البلاغة أقصى استفادة، لابد له من أن يقرأ الكلام فيه بتدبر وتفكر، ويكرر القراءة ويعيدها مع التفهم والاعتبار، حتى تنطبع تلك الحقائق في صحيفة صدره، وتكون قبلته التي تتوجه إليها روحه، وعينه التي يحرس بها جوارحه، وجليسه عند وحدته، ومؤدبه عند جهالته.

على أن تمييز الكلام الذي يتحدث عن الجانب التربوي من غيره في النهج أمر يسير، حيث إن قوامه في العادة الحث على التقوى والتذكير بالموت وذكر الآخرة والتزهيد بالدنيا وتبيان حقائق الأمور التي تتعلق بالسلوك، كذكر صفات المتقين وصفات الدنيا والعلاقة بينها وبين

الآخرة، وذكر أسباب الرزق وحالات القلب، وذكر الكثير من الصفات الحميدة الواجب مراعاتها، والكثير من الصفات الذميمة التي يجب على المرء اجتنابها.

وخلاصة القول، فان الاهتمام بالجانب الأخلاقي الذي يطرحه نهج البلاغة من أهم الأمور التي يجب أن تلاحظ إذا أردنا الاستفادة من هذا الأثر القيم حق الفائدة.

ومن هذا المنطلق، ارتأينا أن نستعرض جزء من الكلمات والخطب الخاصة بالجانب التربوي والأخلاقي في كتاب نهج البلاغة، ونستوحي ما يمكن استيحاؤه بما يناسب هذه العجالة، على أننا على ثقة بأن هذه الدراسة هي أدنى من أن تستوعب هذا الجانب في كتاب النهج على الإطلاق، إذ إننا مهما أولينا هذا الكتاب الشريف من الجهد في البحث والتحليل، فانه يبقى أوسع كثيرا في العطاء الإسلامي إلى ابعد الحدود.

اولا: إصلاح الذات هو الأهم

إن نظرة عامة حول كتاب نهج البلاغة تنبئنا بأن أمير المؤمنين عليه السلام قد ركّز في الجانب التربوي على إصلاح الذات بشكل كبير، وجعل الاهتمام بإصلاح النفس مقدما على كل إصلاح غيره، قال عليه السلام: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ وَ طُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَ أَكَلَ قُوتَهُ وَ اشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ وَ بَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ وَ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ)[1]، وأهمية إصلاح الذات هي حقيقة من الحقائق القرآنية المعروفة التي تجعل من قضية إصلاح النفس أساساً لكل إصلاح آخر، قال تعالى: (إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)(الرعد١١).

وقد تورد في هذا المقام شبهة مفادها: أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ما ورد عنه في النهج يدعو الناس إلى العكوف على إصلاح الذات، وهذا يعد خلاف النظرية الإسلامية التي تدعو الإنسان إلى الاهتمام بالمجتمع لأداء دور فاعل في إصلاح الآخرين.

وفي مقام الجواب عن ذلك لا بد أن نعلم بان المرء بحاجة إلى تربية نفسية شديدة حتى يكون قادرا على أداء رسالته في التصدي لإصلاح

١. نهج البلاغة ٢: ٩٦.

المجتمع، ودون هذه التربية العالية فانه يكون في معرض مزالق الهوى والرياء ـ بل في معرض عدم الفهم الحقيقي لرسالة الدين التي يدعو إليها ـ وبالتالي فان الأمر ينتهي به إلى الانحراف والابتعاد عن الهدف الأول في النهاية.

فإذا ما اهتدى الإنسان حقا في تلك التربية الذاتية، فان الواجب الشرعي والأخلاقي يفرض عليه أن يتصدى إلى قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأداء دوره في المجتمع بشكل طبيعي، على انه لا مشاحّة في أن يؤدي المرء واجب إصلاح الآخرين إذا ما اقتضى الأمر بأن يكون ذلك متزامنا مع واجب إصلاح الذات، وقد أشار عليه السلام إلى قضية أداء الواجبات الإسلامية تجاه المجتمع في كثير من الموارد في كتاب النهج، الأمر الذي يشعر بأن هذا الإصلاح لا بد ان يكون مقترنا بالإصلاح الذاتي الأهم، قال عليه السلام: (مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ)[1]، وقال عليه السلام: (إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ وَمَا بَرِحَ لِلَّهِ عَزَّتْ آلَاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُمْ

١. نهج البلاغة ٤ : ١٦

فِـي ذَاتِ عُقُـولِهِمْ، فَاسْتَصْـبَحُوا بِنُـورِ يَقَظَـةٍ فِـي الْأَبْصَـارِ وَالْأَسْـمَاعِ وَالْأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَدِلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ، مَـنْ أَخَـذَ الْقَصْـدَ حَمِـدُوا إِلَيْـهِ طَرِيقَـهُ وَبَشَّـرُوهُ بِالنَّجَـاةِ، وَمَـنْ أَخَـذَ يَمِينـاً وَشِمَالًا ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيـقَ وَحَـذَّرُوهُ مِـنَ الْهَلَكَـةِ، وَكَـانُوا كَـذَلِكَ مَصَـابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ، وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لَأَهْلًا أَخَـذُوهُ مِـنَ الـدُّنْيَا بَـدَلًا فَلَـمْ تَشْـغَلْهُمْ تِجَـارَةٌ وَلَـا بَيْـعٌ عَنْـهُ يَقْطَعُـونَ بِـهِ أَيَّـامَ الْحَيَـاةِ وَيَهْتِفُـونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْـطِ وَيَـأْتَمِرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْـآخِرَةِ وَهُـمْ فِيهَا فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُـوا غُيُـوبَ أَهْـلِ الْبَـرْزَخِ فِـي طُـولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْـلِ الـدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ وَ يَسْمَعُونَ مَا لَـا يَسْـمَعُونَ فَلَـوْ مَثَّلْـتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِيـنَ أَعْمَـالِهِمْ وَفَرَغُـوا لِمُحَاسَـبَةِ أَنْفُسِـهِمْ عَلَـى كُـلِّ صَـغِيرَةٍ وَكَـبِيرَةٍ أُمِـرُوا بِهَـا فَقَصَّرُوا عَنْهَا أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَـا وَحَمَّلُـوا ثِقَـلَ أَوْزَارِهِـمْ ظُهُـورَهُمْ فَضَعُفُوا عَنِ الِاسْتِقْلَالِ بِهَـا فَنَشَـجُوا نَشِيجاً وَتَجَـاوَبُوا نَحِيبـاً يَعِجُّـونَ إِلَـى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ وَاعْتِرَافٍ لَرَأَيْتَ أَعْلَامَ هُدًى وَمَصَابِيحَ دُجًى قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَأُعِـدَّتْ لَهُـمْ مَقَاعِـدُ الْكَرَامَـاتِ فِـي مَقْعَـدٍ اطَّلَـعَ اللَّـهُ عَلَـيْهِمْ فِيـهِ فَرَضِـيَ سَـعْيَهُمْ

وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ وَأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ جَرَحَ طُولُ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ وَلَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ، فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ)[1]، وبذلك لا يمكن الادعاء بان كتاب النهج يدعو إلى التقوقع والاقتصار على تربية النفس فقط.

١. نهج البلاغة ٢: ٢١٢.

ثانيا: الدعوة إلى التقوى

قيل في معنى التقوى انها الاحتراز عن المعاصي والحذر عما نهى الله تعالى عنه، وقيل أنها التخلي عن كل مذموم والإقبال إلى كل محمود، وقيل انها حالة ضبط النفس والتسلط على الشهوات، وقيل أنها الإحساس بالمسؤولية والتعهد الذي يحكم وجود الإنسان وذلك نتيجة لرسوخ الإيمان في القلب، حيث يصده عن الفجور والذنب ويدعوه إلى العمل الصالح والبر ، وكل هذه التعاريف تصب في معنى واحد يؤدي إليه معناها اللغوي، فالتقوى مشتقة من " الوقاية " التي تعني المواظبة والسعي على حفظ الشيء من الضرر والهلكة.

لقد جعل أمير المؤمنين عليه السلام قضية التقوى العنوان الرئيس للتربية والإصلاح، إذ أن من المسلّمات الواضحة في الشريعة الإسلامية كون التقوى هي السبب الأساس في كبح جماح الهوى، وهي التي تعصم الإنسان من الانزلاق في وحل الضلال والانحراف، لذلك فان الإمام عليه السلام قد وظّف الحث على التقوى لغرض إصلاح النفس بكل جوانبها، قال عليه السلام : (فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ

وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ، بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ وَيَنْجُو الْهَارِبُ وَ تُنَالُ الرَّغَائِبُ)[1].

وكثيرا ما نجد في طيّات تلك الكلمات القدسية لأمير المؤمنين عليه السلام مدح التقوى والتأكيد على خصالها الفريدة وثمارها الجليلة، ما يشعر بأنه عليه السلام يستخدم وصف التقوى الرائع كطريق يرغّب السائرين فيه للاتصاف بهذه الصفة التي دعت إليها الرسالات السماوية كافة، قال عليه السلام: (أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ)[2]، وقال: (لَا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ وَ لَا يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ)[3]، وقال: (اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ وَ الْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى)[4]، وقال عليه السلام: (أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ وَأَوْطَانِ السَّعَةِ وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ وَتُظْلِمُ لَهُ الْأَقْطَارُ وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ

---

١. نهج البلاغة: ٢: ٢٢٣.

٢. المصدر نفسه: ١: ٤٨.

٣. المصدر نفسه ١: ٥٠.

٤. المصدر نفسه ٢: ٥١.

وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً فَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ وَلَا حَمِيمٌ يَنْفَعُ وَلَا مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ)[1].

ويبدو من خلال تتبع بعض الخطب المباركة في نهج البلاغة أن الإمام(عليه السلام) لا يكتفي بوصف التقوى ومدحها في مقام الترغيب على التخلّق بها كما ذكرنا سابقا، وإنما يصف شخصيات حيّة تمثل في سلوكها الواقعي روح التقوى، ولعل هذا المنهج هو المنهج الذي اتبعه القران الكريم في عرضه لسيرة الأنبياء والصالحين، فمن جملة أغراض هذا العرض هو الموعظة والاقتداء بهم من قبل المؤمنين، قال تعالى: (**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**)(هود/١٢٠) وقال تعالى: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)(الأنعام/٩٠)، ومن الخطب الواضحة في هذا المجال خطبته(عليه السلام) التي قالها في وصف المتقين حين طلب (همام) منه ذلك، وخطبته الرائعة التي قالها بعد تلاوته لقوله تعالى: (**رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**) (النور/٣٧)، وخطبته في وصف أخ صالح له:

١. نهج البلاغة ٢: ١٦٩.

(كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللَّهِ وَ كَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ...)[1] وأمثال ذلك كثير.

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن مثل هذه الخطب والكلمات في وصف عباد الله المخلصين تشتمل على صفات واسعة تشمل حتى الإحساسات الخفية التي يعيشها المتقي في داخل ذاته، ومن الواضح أن هذه المواصفات مما لا يمكن تشخيصها ومعرفتها بالوسائل العادية، وإنما هي من مختصّات أولئك الأولياء الذين لا يفشون تلك الخفايا في العادة بُعدا عن الفخر وحرصا على كتمان السر، لذلك يُعد الوصف العميق والدقيق لتلك الصفات في نهج البلاغة كنزا من الكنوز التي أبداها أمير المؤمنين عليه السلام للناس كي يستفيدوا منها حق الفائدة.

١. نهج البلاغة ٤: ٦٩.

ثالثا: محطات تربوية

١ - الهوى وطول الأمل

في المجال التربوي الأكثر تفصيلا، يمكن أن نقول أن من المحاور الأساسية التي ركز أمير المؤمنين عليه السلام على معالجتها في موضوع تربية النفس والسير إلى الله تعالى خصلتين مهمتين هما: إتباع الهوى وطول الأمل، وهذا ما ذكره صريحا في أكثر من موضع في نهج البلاغة حيث قال: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ)[1]، وقال: (مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ أَسَاءَ الْعَمَلَ)[2]، وقال عليه السلام: (وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَلَ يُسْهِي الْعَقْلَ وَيُنْسِي الذِّكْرَ فَأَكْذِبُوا الْأَمَلَ فَإِنَّهُ غُرُورٌ وَصَاحِبُهُ مَغْرُورٌ)[3].

الهوى: الميل الطبيعي في النفس تجاه ما تشتهيه من ملذات، وهو أمر يحتاج الى ضابط يضبطه، ومن دونه تطلق النفس العنان الى أقصى غاية في الانحراف من اجل تحقيق ما تشتهيه.

---

١. نهج البلاغة ١: ٩٣.

٢. المصدر نفسه ٤: ١٠.

٣. المصدر نفسه ١: ١٥١.

اما طول الامل: فهو استفساح فترة الاجل والغفلة عن قرب الموت وانقطاع الامنيات به، على الآمال في الدنيا مما لا يمكن للإنسان ادراكها كلها، اذ كلما امل الانسان في الوصول الى امنية من أماني الدنيا برزت له أخرى، وهكذا حتى يوافيه الاجل دون بلوغ كل غاياته.

٢ - الزهد في الدنيا

استخدم الإمام(عليه السلام) التزهيد بالدنيا للتقليل من تعلّق الناس بها، كخطوة ضرورية للإصلاح في باب إتباع الهوى وطول الأمل، لذلك نجد أن الكثير من الخطب التي يحث فيها الإمام(عليه السلام) على إصلاح النفس تعرّج على موضوع التزهيد في الدنيا وذكر صفاتها المذمومة ومزالقها الخطيرة.

وقضية الزهد بالدنيا من المميزات الرائعة التي تميّز بها كتاب نهج البلاغة، وكيف لا يكون ذلك وصاحب النهج قد سدّ الأبواب على العالمين في ضرب أروع أمثلة الزهد على الصعيد العملي.

ويخطئ من يظن أن الصورة التي قدمها الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) للزهد في كتاب النهج صورة ذات أبعاد تقترب من الصوفية أو الرهبانية التي تنهى عنها الشريعة الإسلامية، وبالتالي ترى البعض يحاول أن يؤوّل الأمر بأن الزهد الذي دعا إليه الإمام(عليه السلام) هو مما اختص به أهل عصره،

باعتبار الفورة المادية التي انتشرت في أوساط المسلمين انذاك نتيجة للانفتاح الاقتصادي والتميز الطبقي الذي أصابهم.

نعم، من الصحيح أن يكون الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد عاصر تلك الأوضاع المؤسفة التي عاشها المسلمون في ذلك الوقت، ولكن لغة الخطاب العام الذي قاله عليه السلام في مجال التزهيد بالدنيا ذات نطاق واسع لا يختص بجماعة دون جماعة، أو بأهل زمان دون آخر.

ان نظرة فاحصة لمجمل الأحاديث التي تخص الزهد في نهج البلاغة تعرفنا بأن التصوف والرهبنة من الأمور المرفوضة بشكل قاطع، وقد ورد هذا الأمر بشكل جلي في قول الإمام عليه السلام لعاصم بن زياد الذي مثّل بسلوكه حالة التصوف والانعزال: (يَا عُدَيَّ نَفْسِهِ لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ أَ مَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ؟ أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا، أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ) فقال عاصم: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك! فقال عليه السلام: (وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ)[1]، كما ورد قوله عليه السلام في موضع آخر: (لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَ سَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَاشَهُ وَ سَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَ بَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَ يَجْمُلُ وَ لَيْسَ

١. نهج البلاغة ٢: ١٨٨.

لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ)[1]، وبالجمع بين الأقوال في هذا الموضوع نفهم حقيقة الزهد الذي دعا إليه الإمام عليه السلام وحث الناس على التخلق به، فهو الزهد الذي لا يحرّم الطيبات الضرورية أو العقلائية التي تلائم كل فرد فرد في المجتمع.

ومما يدل على أن الزهد الذي حث عليه الامام هو من الزهد الممدوح: أنّه عليه السلام جعله من الصفات العالية في تهذيب النفس ومن صفات المتقين الحميدة، قال عليه السلام: (فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ وَ أَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَ أَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ، وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى وَرَاحَةِ النُّعْمَى فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ...)[2].

وخلاصة لما تقدم، نستوحي من مجمل العرض الرائع للزهد في نهج البلاغة أن أمير المؤمنين عليه السلام يريد من المرء أن لا يكون مرتبطا بالدنيا بحيث

١. نهج البلاغة ٤: ٩٣.

٢. المصدر نفسه ١: ١٤١.

تكون شغله الشاغل، واحد الطرق التي تحقق هذا الغرض هو نبذ فضول الدنيا عمليا والاقتصار على ما هو ضروري كأداة لانتزاع التعلق القلبي بها - بالإضافة إلى تحقيق الفائدة الروحية في التقليل من الملذات المادية وتقوية الإرادة - وربما كان المدح الواسع للقناعة وذم الطمع في أقوال الإمام هو لأجل هذا الغرض بالذات، قال عليه السلام: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِئٌ فَتَجَنَّبُوا مَرْعَاهُ، قُلْعَتُهَا أَحْظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا وَبُلْغَتُهَا أَزْكَى مِنْ ثَرْوَتِهَا، حُكِمَ عَلَى مُكْثِرٍ مِنْهَا بِالْفَاقَةِ، وَأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ، مَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُهَا أَعْقَبَتْ نَاظِرَيْهِ كَمَهاً، وَمَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بِهَا مَلَأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجَاناً، لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ، هَمٌّ يَشْغَلُهُ وَ غَمٌّ يَحْزُنُهُ، كَذَلِكَ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بِالْفَضَاءِ مُنْقَطِعاً أَبْهَرَاهُ هَيِّناً عَلَى اللَّهِ فَنَاؤُهُ وَعَلَى الْإِخْوَانِ إِلْقَاؤُهُ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ وَيَقْتَاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الِاضْطِرَارِ وَيَسْمَعُ فِيهَا بِأُذُنِ الْمَقْتِ وَالْإِبْغَاضِ، إِنْ قِيلَ أَثْرَى قِيلَ أَكْدَى، وَإِنْ فُرِحَ لَهُ بِالْبَقَاءِ حُزِنَ لَهُ بِالْفَنَاءِ، هَذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ فِيهِ يُبْلِسُونَ)[1]، وقال عليه السلام: (...وَلَا كَنْزَ أَغْنَى مِنَ الْقَنَاعَةِ وَلَا مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى بِالْقُوتِ وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ وَالرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ

١. نهج البلاغة ٤: ٨٥.

وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ وَالْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ وَالشَّرُّ جَامِعُ مَسَاوِئِ الْعُيُوبِ)[1].

بالإضافة إلى ذلك نجد انه عليه السلام يدعو إلى استثمار فضول هذه الدنيا كطريق إلى الآخرة إن لم يكن تركها، قال عليه السلام للعلاء بن زياد الحارثي وقد رأى سعة داره: (مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ)[2].

٣ - ذكر الموت

ركز إمام البيان عليه السلام لأجل التزهيد بالدنيا على نقطة أساسية وفعّالة جدا لهذا الغرض، وهذه النقطة هي ذكر الموت، حيث إننا قلّما نجده عليه السلام يذم الدنيا ويزهّد الناس فيها ولا يأتي على ذكر الموت ويطيل في وصفه بأنواع الأوصاف التي يعجز القلم عن بيان تأثيرها في النفس الإنسانية، قال عليه السلام: (فَإِنَّهُ وَاللَّهِ الْجِدُّ لَا اللَّعِبُ وَالْحَقُّ لَا الْكَذِبُ وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيهِ وَأَعْجَلَ حَادِيهِ فَلَا يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ

١. نهج البلاغة ٤١ : ٨٧

٢. نهج البلاغة ٢ : ١٨٧

وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَذِرَ الْإِقْلَالَ وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ طُولَ أَمَلٍ وَ اسْتِبْعَادَ أَجَلٍ كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ حَمْلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكاً بِالْأَنَامِلِ أَ مَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيداً وَيَبْنُونَ مَشِيداً وَ يَجْمَعُونَ كَثِيراً كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً وَمَا جَمَعُوا بُوراً وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَا فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ وَ لَا مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ)[1]، وقال عليه السلام: (فَكَمْ أَكَلَتِ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيزِ جَسَدٍ وَأَنِيقِ لَوْنٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا غَذِيَّ تَرَفٍ وَرَبِيبَ شَرَفٍ يَتَعَلَّلُ بِالسُّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ وَ يَفْزَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ضَنّاً بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ وَ شَحَاحَةً بِلَهْوِهِ وَلَعِبِهِ فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَتَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ غَفُولٍ إِذْ وَطِئَ الدَّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ وَنَقَضَتِ الْأَيَّامُ قُوَاهُ وَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ الْحُتُوفُ مِنْ كَثَبٍ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ وَ نَجِيٌّ هَمٍّ مَا كَانَ يَجِدُهُ وَ تَوَلَّدَتْ فِيهِ فَتَرَاتُ عِلَلٍ آنَسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ فَفَزِعَ إِلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ وَتَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا ثَوَّرَ حَرَارَةً وَ لَا حَرَّكَ بِحَارٍّ إِلَّا هَيَّجَ بُرُودَةً وَلَا اعْتَدَلَ بِمُمَازِجٍ لِتِلْكَ الطَّبَائِعِ إِلَّا أَمَدَّ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَاءٍ حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلُهُ وَ ذَهَلَ مُمَرِّضُهُ وَتَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ وَخَرِسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ وَ تَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيَّ

١. نهج البلاغة ٢ : ١٤

خَبَرٍ يَكْتُمُونَهُ فَقَائِلٌ يَقُولُ هُوَ لِمَا بِهِ وَمُمَنٍّ لَهُمْ إِيَابَ عَافِيَتِهِ وَمُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ يُذَكِّرُهُمْ أُسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحِ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الْأَحِبَّةِ إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصَصِهِ فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِذُ فِطْنَتِهِ وَيَبِسَتْ رُطُوبَةُ لِسَانِهِ فَكَمْ مِنْ مُهِمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ وَدُعَاءٍ مُؤْلِمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَّ عَنْهُ مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعَظِّمُهُ أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ وَإِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا)[1]، وقال عليه السلام: (أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ وَ حَرَكَاتٍ سَكَنَتْ وَ لَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً وَلَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ...)[2].

والمتأمّل في هذه المقاطع العظيمة وأمثالها في نهج البلاغة، يرى واضحا أن الإمام عليه السلام يدفع الإنسان إلى تصوّر نموذج حقيقي لإنسان عاش حياته في ترف وغفلة عن المصير المحتوم ثم أصابته مصيبة الموت بعد ذلك، وهذا التصور يعد من أفضل الطرق تأثيرا في النفس في مضمار ذكر الموت، إذ انه يشبّه قضية غفلة ذلك الإنسان الموصوف بغفلة الإنسان المُراد وعظه، ويشبّه سرعة مجيء الأجل لذلك الموصوف بسرعة مجيئه

١. نهج البلاغة ٢: ٢١٠.

٢. المصدر نفسه ٢: ٢٠٤.

لهذا الإنسان أيضا، وهذه الطريقة توقظ الإنسان من غفلته بصدد سرعة اللحاق بالماضين، وهذه النتيجة هي من القضايا المهمة التي يستهدفها الإمام عليه السلام من تلك المقاطع البليغة، وقد أشار عليه السلام في موضع آخر من النهج لأهمية هذه النتيجة بقوله: (لَوْ رَأَى الْعَبْدُ الْأَجَلَ وَمَصِيرَهُ ، لَأَبْغَضَ الْأَمَلَ وَغُرُورَهُ)[1]، ويمكن أن يدخل هذا العمل في باب "الاتعاظ بالغير" الذي ورد ذكره في موضع آخر من النهج وجعله الإمام عليه السلام من صفات السعيد حيث قال: (وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ)[2].

لقد شدد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على قضية الموت في نهج البلاغة وعرضها من عدّة جوانب مختلفة تصب كلها في صالح التزهيد بالدنيا، فتارة يذكر الموت من ناحية الفناء المادي الذي يصيب الجسد العزيز للإنسان، من قبيل قوله عليه السلام: (فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ بِعَقْلِكَ أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْغِطَاءِ لَكَ وَ قَدِ ارْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِّ فَاسْتَكَّتْ وَاكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالتُّرَابِ فَخَسَفَتْ وَ تَقَطَّعَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ ذَلَاقَتِهَا وَهَمَدَتِ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقَظَتِهَا وَ عَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدُ بِلًى سَمَّجَهَا وَسَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ

١. نهج البلاغة ٤: ٧٩.

٢. المصدر نفسه ١: ١٥٠.

وَلَا قُلُوبٌ تَجْزَعُ لَرَأَيْتَ أَشْجَانَ قُلُوبٍ وَأَقْذَاءَ عُيُونٍ لَهُمْ فِي كُلِّ فَظَاعَةٍ صِفَةُ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ وَ غَمْرَةٌ لَا تَنْجَلِي)[1].

وتارة يذكر انقطاع المرء عن أمواله ولذائذه انقطاعا تاما وانطماس ذكره في القبر وزوال آثاره، وذلك من قبيل قوله عليه السلام: (وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً وَ أُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِياً وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْماً وَلَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ مُتَدَانُونَ لَا يَتَزَاوَرُونَ وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ وَجُهَلَاءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْناً وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً وَ بِالْأَهْلِ غُرْبَةً وَ بِالنُّورِ ظُلْمَةً فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا حُفَاةً عُرَاةً قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ)[2].

وتارة يذكر الآلام التي يلاقيها المرء عند الاحتضار وأثناء قبض الروح مضافا الى الأهوال الغيبية التي يلاقيها الإنسان في عالم البرزخ

---

١. نهج البلاغة ٢: ٢٠٨.

٢. المصدر نفسه ١: ٢١٩.

المعروف، وذلك من قبيل قوله عليه السلام في خطبته الغرّاء: (أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَشُغُفِ الْأَسْتَارِ نُطْفَةً دِهَاقاً وَعَلَقَةً مِحَاقاً وَجَنِيناً وَرَاضِعاً وَوَلِيداً وَيَافِعاً ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً وَلِسَاناً لَافِظاً وَبَصَراً لَاحِظاً لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ وَاسْتَوَى مِثَالُهُ نَفَرَ مُسْتَكْبِراً وَخَبَطَ سَادِراً مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ ثُمَّ لَا يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً وَلَا يَخْشَعُ تَقِيَّةً فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً وَ عَاشَ فِي هَفْوَتِهِ يَسِيراً لَمْ يُفِدْ عِوَضاً وَ لَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً دَهِمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ وَسَنَنِ مِرَاحِهِ فَظَلَّ سَادِراً وَبَاتَ سَاهِراً فِي غَمَرَاتِ الْآلَامِ وَطَوَارِقِ الْأَوْجَاعِ وَ الْأَسْقَامِ بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ وَ وَالِدٍ شَفِيقٍ وَ دَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً وَلَادِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً وَالْمَرْءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِثَةٍ وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الْأَعْوَادِ رَجِيعَ وَصَبٍ وَنِضْوَ سَقَمٍ تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ وَحَشَدَةُ الْإِخْوَانِ إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ وَ مُفْرَدِ وَحْشَتِهِ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ وَعَثْرَةِ الِامْتِحَانِ وَأَعْظَمُ مَا هُنَالِكَ بَلِيَّةً نُزُولُ الْحَمِيمِ وَتَصْلِيَةُ الْجَحِيمِ وَفَوْرَاتُ السَّعِيرِ وَسَوْرَاتُ الزَّفِيرِ لَا فَتْرَةٌ مُرِيحَةٌ

وَلَا دَعَةٌ مُزِيحَةٌ وَلَا قُوَّةٌ حَاجِزَةٌ وَلَا مَوْتَةٌ نَاجِزَةٌ وَلَا سِنَةٌ مُسَلِّيَةٌ بَيْنَ أَطْوَارِ الْمَوْتَاتِ وَعَذَابِ السَّاعَاتِ إِنَّا بِاللَّهِ عَائِذُونَ)[1].

١ نهج البلاغة ١ : ١٤٣

رابعا: الترغيب بالآثار العاجلة

ومن الأساليب التربوية الواضحة التي وردت في كتاب نهج البلاغة: اسلوب الترغيب اعتمادا على بيان آثار الصلاح العاجلة بالإضافة إلى الآثار الآجلة، وهذه القضية من الحقائق القرآنية المعروفة أيضا، حيث ان للصلاح آثاراً ايجابية تظهر في الحياة الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) النحل/٣٠ وقال تعالى: **(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)**(النحل/٩٧) وقال تعالى: **(مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا)** (النساء/١٣٤).

لذا فقد ورد في نهج البلاغة في مواضع عدة منه ما يؤكد هذه الحقيقة، باعتبار أن هذا المجال يمكن أن يعد من المجالات التي تشكل دافعا قويا للإنسان من أجل أن يصلح حاله، باعتبار أن الكثير من الناس يحرصون على إصلاح حالهم في هذه النشأة، ويحبون استقامة أمورهم في الدنيا.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: (فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَ قَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ وَ تَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ وَ سَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلَاتُ الْغُرُورِ وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الْأُمُورِ ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى وَ رَاحَةِ النُّعْمَى فِي أَنْعَمِ نَوْمِهِ وَآمَنِ يَوْمِهِ وَقَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً وَقَدَّمَ زَادَ الْآجِلَةِ سَعِيداً)[1] وقال عليه السلام: (وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَ تَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللَّهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ..)[2] وقال عليه السلام: (مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ

١. نهج البلاغة ١: ١٤١.

٢. المصدر نفسه ٣: ٢٧.

وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ)[1].

١ نهج البلاغة ٤ : ٢٠

المبحث الثاني

من وحي "النهج" في علم الفلسفة

تمهيد:

الفلسفة ببساطة هي: علم القواعد العقلية الأساسية وما يُبنى عليها من أفكار ونظريات في الحقائق الكلية لهذا الوجود، فهي تختلف عن العلوم المتعارفة بكونها تنظر إلى مبادئ الأشياء ومصادر وجودها والمعارف الكلية المرتبطة بها، بينما تتخصص العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الكونية دراسة تفصيلية جزئية، فعالم الفلك مثلا يدرس الفضاء دراسة تفصيلية تتعلق بمواده وعلاقة كواكبه بعضها ببعض وما إلى ذلك، في حين أن الفيلسوف يحاول ان يتعرف على مصادر وجود هذا الفضاء ومبادئه الأولية.. من أين انبثق؟ وما مصيره؟.

لذا فإن علم الفلسفة ليس علما مبتدعا في أصوله، وإنما هو عملية دراسة وتنظيم للقدرات العقلية وما يتمخّض عنها من نظريات وقوانين يحفل بها العقل البشري، وعلى ضوء هذا الفهم فإن كل إنسان قادر على التفكير السليم يمكن أن نصفه بأنه فيلسوف في درجة معينة.

فالمرء الذي يعرف انه من المستحيل أن يكون الشيء موجودا وغير موجود في المكان نفسه وفي الوقت نفسه، والمرء الذي يعرف أن الحجر

الطائر في الهواء لا بد له من شيء قذفه.. هو في الواقع امرؤ يحكّم في حقائق الأشياء الأصول والقواعد العقلية التي يعتمد عليها علم الفلسفة بشكل كامل.

ولقد كانت البحوث المتعلقة بإثبات وجود الخالق لهذا الكون والتعرف على صفاته وعلاقته بهذا الخلق، من البحوث التي تدخل في صميم علم الفلسفة، باعتبار أن هذه المعارف تعتمد أساسا على العقل في دراستها وإثباتها سلبا أو إيجابا.

ولقد اخذ هذا النوع من العلوم -الدراسات العقلية المتعلقة بالخالق سبحانه - يتوسع ويتطور وينتشر، حتى ابتلي بمن تكلم به ممن هو ليس أهلا لذلك، فنجم عن ذلك وضع النظريات الخاطئة والأحكام المنحرفة التي لا تمت إلى التفكير السليم بصلة، وإنما تعتمد على شوائب الأوهام وتزيين الكلام، فاخطأ بسببها الكثير من الناس وتاهوا في حيرة الضلال، ووقع ضحية هذا الفكر الناقص العديد من المفكرين، حتى من الذين يملكون صيتا ذائعا في المدارس العلمية والفلسفية.

ولقد برز في الأمة الإسلامية علماء منها اخذوا على عاتقهم مسؤولية التصدي لهذا العلم المهم بغية إرساء قواعد الفلسفة السليمة، والتي لابد من أن تتناغم مع العقائد الإسلامية الحقة، فتأسست بذلك

المدرسة الفلسفية الإسلامية[1] التي أخذت على عاتقها الرد على الشبهات التي اختلقتها الفلسفات المادية أو السفسطائية[2] ومن دار في فلكهما.

ولكن الكثير من علماء الفلسفة الإسلامية اخطأوا في العديد من القضايا الفلسفية وتخبطوا في محاذير عقلية، مما أوقع الخلاف بينهم، وأثار السجال الفلسفي عندهم، وخاصة في مجال دراسة الحقائق الوجودية التي وردت صريحا في الشريعة الإسلامية، كمسائل الجبر والتفويض وحقيقة الكلام الإلهي وغير ذلك.

وهنا يبرز كلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي ورد في الكتاب العظيم "نهج البلاغة" كحل شافٍ وعلاج ناجع يدفع كل غموض ووهم في هذا الموضوع الحساس، على الرغم من أن أمير المؤمنين عليه السلام قد أورد تلك الكلمات في عصر يُعد متقدما نسبيا عن نشاط الحركة الفلسفية في الأمة الإسلامية بعامة.

إن خطب وكلمات نهج البلاغة التي تطرح هذا اللون من الحقائق كانت هي البلسم الشافي لعقول وقلوب الناس على حد سواء، وحق

١. ولعل الفترة التي تزامنت مع ايام الخلافة العباسية وما تلاها هي الفترة التي شهدت نهضة المدرسة الفلسفية الإسلامية وتطورها بشكل عام.

٢. ظهرت إحدى المدارس الفلسفية على أيدي جماعة من المفكرين اليونان يسمون بالسفسطائيين، وتقوم أفكارهم على التشكيك في صحة الحقائق العقلية المنبثقة عن الفكر البشري بعامة.

للذي يبتغي الحق في هذا المضمار أن لا يحيد بنظره عن أقوال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا العلم، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول بأن خطب نهج البلاغة في هذا الباب تُعد من الكرامات الباهرة للإمام علي عليه السلام القائمة إلى يومنا هذا.

اولا : نظرة على أسس الفلسفة الإلهية[1]

نرى في هذا المقام ان من المستحسن أن يكون لدى القارئ الكريم جملة من المعارف الأساسية حول علم الفلسفة بشكل عام، لان اصول المعارف العقلية التي يبني عليها الإنسان القوانين والنظريات جميعا ـ سواء الفلسفية أم العلمية الطبيعية أم غير ذلك ـ أمور ضرورية للمعرفة، لأنها الأساس لجميع البراهين العقلية، على أن هذه المعارف من البديهية بمكان بحيث لا تحتاج معه إلى برهنة واثبات لبساطتها ووضوحها، وجميع الناس يتحدون في تطبيق هذه القواعد على حياتهم العملية على اختلاف معتقداتهم وتقاليدهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

القاعدة الأولى: أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، وهي من أهم القواعد العقلية وأشدها وضوحا، وكمثال عليها نجد أن من المستحيل ان يكون الشيء موجودا وغير موجود في الوقت نفسه وفي المكان نفسه، أو أن الجسم حار وبارد في اللحظة عينها، أو أن الإنسان قائم وقاعد في ذات المكان وفي ذات الوقت وهكذا.

القاعدة الثانية: لا بد لكل حادث من مُحدث، فالحجر الذي نراه طائرا في الهواء لا بد أن نحكم ـ بداهة ـ بأن له من قذفه، وانه من

١. وتسمى الفلسفة التي تبحث في هذا المضمار بالفلسفة الميتافيزيقية

المستحيل أن يكون قد انقذف من تلقاء نفسه دون مؤثر، ويمكن ان يدخل في هذه القاعدة عنوانا العلة والمعلول في علم الفلسفة، فالعلة هي السبب لوقوع الحدث، والمعلول هو الأمر الحادث، وانه لا بد لكل معلول من علة.

القاعدة الثالثة: استحالة التسلسل اللانهائي في الحوادث، وان سلسلة الحوادث لا بد لها من نهاية، وكمثال على ذلك: لو فرضنا ان جيشا أراد غزو بلاد ما، وهذا الغزو لن يقع إلا بأمر يصدره قائد الجيش، وهذا القائد غير مخوّل بإصدار الأمر إلا بأمر يأتيه من القائد الأعلى منه رتبة، والأعلى منه ينتظر أمر القائد الأعلى منه رتبة أيضا، ولو استمر الأمر هكذا دون نهاية، فلن يصدر الأمر بالغزو إطلاقا، إلا إذا قطعت السلسلة بقائد أعلى يبادر بالأمر من عنده دون أن ينتظر الأوامر ممن هو أعلى منه، ويمكن أن يدخل في هذه القاعدة حقيقة استحالة الدور، ومثال ذلك ما لو فرضنا اثنين من المتسابقين واقفين على خط بداية السباق، وكل منهما قد اشترط على نفسه ان لا ينطلق من خط البداية إلا بعد ان ينطلق صاحبه قبله، فهل من الممكن أن يبدأ السباق بينهما؟ وقد وقع الدور بينهما في شرط بداية السباق.

وعلى ضوء هذه المعارف البديهية التي تعد من ركائز التفكير البشري في المجالات كلها، يحكم العقل "بضرورة وجود" خالق لهذا

الكون الذي يتكون من مجموعة كبيرة من الحوادث التي "من الممكن ان تقع"[1]، وعلى هذا صنفت الفلسفة الوجود الفعلي إلى نوعين رئيسين هما: "الواجب الوجود" وهو الله تعالى، و"الممكن الوجود" وهو الكون المخلوق له[2].

فالحوادث التي تقع في هذا الكون لا بد لها من محدث وفق القاعدة الثانية، والمحدث لها إن كان حادثا أيضا "أو معلولا لغيره" فلا بد له من محدث أعلى منه على القاعدة نفسها، وإذا استمرت السلسلة على هذا المنوال –أي معلول وعلة معلولة لغيرها - إلى ما لا نهاية فهذا محال عقلا وفق القاعدة الثالثة، ولابد من نهاية السلسلة إلى وجود غير حادث ولا معلول لغيره، وبالتالي فهو لا يحمل صفات الحوادث والمعلولات، وإنما هو العلة التي لا علة لها -لا تحتاج إلى غيرها - وهو الله سبحانه وتعالى.

١. فليست هي ضرورية الوجود ولا مستحيلة الوجود، لذلك تسمى بالممكنة الوجود

٢. وقد وضع الفلاسفة نوعا ثالثاً من الوجود أسموه بالممتنع الوجود.

ثانيا: تميّز "النهج" في العلوم العقلية

إن الحقائق الفلسفية[1] في أقوال الإمام(عليه السلام) تمتاز عن سائر الحقائق الواردة في علم الفلسفة من نواحٍ عدة، نذكر منها ثلاث أساسية هي:

أولا: الصواب في الأفكار المطروحة في هذا المجال على طول الخط وتطابقها مع الفطرة الإنسانية بشكل تام، حيث لا نجد مفردة من المفردات العقلية الواردة في نهج البلاغة تتعارض مع أصل فكري أو مع الأفكار الأخرى المرتبطة بها أو القريبة منها، وإنما نجد أن المفاهيم العقلية الواردة في كلامه(عليه السلام) يصدّق بعضها بعضا ويدعم بعضها البعض الآخر وتسير على الصراط المستقيم، مع العلم بأن هذه الكلمات جاءت مبثوثة في خطب متعددة قالها(عليه السلام) في مناسبات مختلفة وأوقات متباعدة من الزمن.

ثانيا: في مضمار عرض المعلومات الفلسفية فان كلام الإمام(عليه السلام) يتجه في اتجاهين رئيسين، الأول يتمثل في تقرير الحقائق العقلية، وهذه التقريرات ـ بالطريقة التي طرحت فيها ـ تهدي التفكير إلى الصراط

١. ان مصطلح "الحقائق الفلسفية في أقوال الإمام(عليه السلام)" مصطلح نذكره على سبيل المجاز، لأنه لا شك أن أمير المؤمنين(عليه السلام) لم يكن يستعمل أنظمة علم الفلسفة لأجل ان يوضح مقاصده للناس، فهو أغنى من ان يحتاج إلى نظام وضعه غيره وهو إمام البيان والعلوم.

المستقيم وتقوّمه للوصول إلى الحقيقة المرجوة دون لبس، أما الاتجاه الثاني فيتمثل في عرض الحقائق الإلهية مع أدلتها العقلية المتينة والكاملة.

ثالثا: إن بيان أمير المؤمنين عليه السلام للمعلومات العقلية جاء من خلال كلام فصيح عالي البلاغة، بحيث انه لا يخاطب فيه العقول فحسب، وإنما يخاطب الوجدان أيضا، إذ أن كلماته القدسية تطرق القلوب قبل الأذهان وتناغم الفطرة قبل المدارك العقلية ـ الفلسفية ـ ولا يخفى ما لهذا الأسلوب الراقي من تأثير في المتلقي لبلوغ المطلوب.

إن الغاية الأساسية من بيان الحقائق العقلية هي رفد الإيمان بالله تعالى وتوسيع المعرفة بصفاته عز وجل، وردّ الشبهات التي ترد على هذا الأصل الإسلامي المهم، وهذه الغاية لا تتحقق بإثبات الحقائق للعقل فقط دون أن يكون لها تأثير على القلب، لان موطن الإيمان الذي يتجذّر فيه هو القلب، وتراكم المعارف العلمية في العقل وحده لا يفي بالغرض، بل ربما كان الحرص على تلقي المعارف العقلية مع إهمال الجانب الروحي نتائج عكسية، حيث تشكل تلك العلوم حجبا كبيرة تمنع الإنسان من بلوغ الغاية المطلوبة ـ وهو الإيمان القلبي ـ لذلك نجد أن الكثير من المسلمين الذين خاضوا لجج العلوم العقلية وأهملوا الجانب القلبي، لم يستفيدوا من الفلسفة إلا مزيدا من الشكوك في أصول عقائدهم وتفاقم الأوهام في عرى إيمانهم.

ثالثا: نبذ من كلامه عليه السلام في الإلهيات

في خطبة لامير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، قال: (مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ، كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ، مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ، لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَلَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ وَالْعَدَمَ وُجُودُهُ وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ، بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ، ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ، وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ، وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ، مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا.

لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا، مَنَعَتْهَا "مُنْذُ" الْقِدْمَيَّةَ وَحَمَتْهَا "قَدْ" الْأَزَلِيَّةَ وَجَنَّبَتْهَا "لَوْلَا" التَّكْمِلَةَ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ.

وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ؟ إِذاً لَتَفَاوَتَتْ

ذَاتُهُ وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ، وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ، وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ)[1].

في المقطع الأول من هذه الخطبة المباركة إلى قوله: (مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا) يقرر عليه السلام المعارف المتعلقة بصفات الله سبحانه وبأفعاله تقريرا، فمثلا في قوله: (كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ) يطلق عليه السلام قاعدة فلسفية عامة مؤدّاها: أن كل شيء إذا عُرف بنفسه ولم يُعرف بآثاره فهو مخلوق، لأنه لا يمكن للشيء المعروف بنفسه إلا أن يكون محدودا تحيط به المعرفة وتشخّصه، والمحدود دائما يفتقر إلى غيره[2] وبالتالي فهو ليس بخالق وإنما مخلوق(مَصْنُوعٌ).

فان قيل: أن بعض المخلوقات لا تعرف بنفسها وإنما تُعرف بآثارها ـ كالجاذبية مثلا[3] ـ قلنا إن الإمام عليه السلام يستدرك هذا النوع من المخلوقات بقوله مباشرة: (وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ) إذ أن الجاذبية وما شابهها من الأعراض وإن كانت لا تُعرف بذاتها ولكنها تعتمد في وجودها على غيرها -إذ لولا وجود الأرض لم تكن هنالك جاذبية أرضية مثلا -

١. نهج البلاغة ٢: ١٢١.

٢. ان الأشياء المحدودة تحتاج إلى المكان الذي يحويها، والله تعالى منزه عن الحاجة لشيء أو مكان.

٣. وهذه الموجودات تسمى في علم الفلسفة بالأعراض ومفردها العَرَض.

وهذا واضح فيه أن هذا الموجود غير قائم بذاته، وإنما هو قائم بغيره(قَائِمٍ فِي سِوَاهُ) وبالتالي فهو مخلوق(مَعْلُولٌ).

ومن خلال هاتين الحقيقتين العقليتين، نعرف أن الباري عز وجل منزّه عن أن يعرف من خلال معرفة كنه ذاته، وانه تعالى قائم بذاته مستغنٍ عمن سواه، وربما كانت هاتان القاعدتان واردتين كأدلة على ما تقدم من قوله: (مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ ـ إلى قوله ـ وَلَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ).

أما في المقطع الثاني من هذه الخطبة الجليلة، فان الإمام(عليه السلام) يطرح فيه الحقائق الإلهية مع أدلتها العقلية بشكل صريح، فمثلا في قوله(عليه السلام): (لا يُشْمَلُ بِحَدٍّ وَلَا يُحْسَبُ بِعَدٍّ وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا وَتُشِيرُ الْآلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا، مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدْمَةَ وَحَمَتْهَا قَدُ الْأَزَلِيَّةَ وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةَ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ) ففي هذا المقطع ينزه الله تعالى عن الحدود والأعداد ويقيم الدليل على ذلك، فالمحدود لا بد أن يكون من الأجسام، لان الأجسام بطبيعتها تحدّ الأجسام الأخرى وتتميز عنها(وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا)، والجسميّة محال على الذات الإلهية.

أما في نفي شمول الذات الإلهية بالعدد، فانه(عليه السلام) يشير إلى أن الله سبحانه لا يمكن أن يُعدّ ضمن الموجودات المخلوقة في هذا الكون، لأنه

لو عُدّ ضمنها لصار مماثلا لها ومقرونا بها، ومماثلته للأجسام يستلزم الجسمية لا محالة، وعندئذ تتمكن الآلات من أن تشير إليه وتعدّه(وَتُشِيرُ الْآلَاتُ[1] إِلَى نَظَائِرِهَا)، وهذا محال على الباري عز وجل أيضا.

وكل من الأدوات والآلات[2] التي سبق ذكرها لا يمكن أن تتصف بصفات الخالق سبحانه وتعالى، وبالتالي لا يمكن أن يعد الله من جنسها، وصفات الخالق الرئيسية هي: القدم والأزل والكمال الذاتي، وجميع الأدوات والآلات تفتقد ـ ببديهة العقل ـ لهذه الصفات الثلاث، وتجري هذه البديهة على اللسان بقولنا في صفتها:

١. إن هذه الأدوات والآلات وجدت منذ كذا، وهذا القول صريح في امتناعها عن صفة القدم(مَنَعَتْهَا ـ مُنْذُ ـ الْقِدْمَةَ).

٢. إنها قد كانت بعد أن لم تكن وهو خلاف الأزلية(وَحَمَتْهَا ـ قَدُ ـ الْأَزَلِيَّةَ).

٣. إنها لولا الأسباب التي تقوّم وجودها والتي لا يمكن أن تستغني عنها لكانت كاملة قائمة بذاتها(وَجَنَّبَتْهَا ـ لَوْلَا ـ التَّكْمِلَةَ).

ثم إن الإمام عليه السلام يبين أن الله سبحانه بمثل هذه الأدوات تجلى للعقول من خلال ما تطلع عليه من آثار الربوبية في هذا الخلق الواسع،

---

١. ولعله يقصد بالآلات هنا الحواس.

٢. بعد ان يبين الإمام ان الحد والعدد من صفات الآلات والأدوات، يؤكد في هذه المرحلة على عدم كونها تحمل صفات الربوبية بقوله: (منعتها منذ القدمية..) وما بعده.

وفي الوقت نفسه فان الله سبحانه بها امتنع عن نظر العيون، أي انه ليس ممتنعا عنها بحيلة منه، وإنما من شانها ـ باعتبارها مخلوقة ـ لا يمكن لها أن تحيط معرفة به، لان المحدود لا يمكن أن يحيط معرفة باللامحدود، والمادة لا ترى إلا ما يشاكلها من الوجود.

أما في قوله: (وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ..)[1] فانه عليه السلام ينفي عن الذات الإلهية السكون والحركة اللذين هما من مظاهر الخلق الواضحة، ويستخدم في إثبات هذه الحقيقة طريقة من أروع طرق تنزيه الخالق عن هاتين الظاهرتين معا[2].

إن إجراء الله تعالى للسكون والحركة في مخلوقاته دليل صارخ على عدم جوازهما له سبحانه، لأنه لو فرضنا أنهما يجوزان له، فذلك يعني أنهما صفتان أزليتان بأزلية الذات الإلهية وليستا مخلوقتين، في حين أن الله سبحانه أحدثهما في خلقه كما هو واضح، وهنا يكون لدينا تعارض بين أزليتهما وبين حدوثهما[3]، لذلك يستنكر الإمام هذا المفروض بقوله:

---

١. يقول ابن ابي الحديد المعتزلي حينما يصل إلى هذه الفقرة من الخطبة: (هذا دليل أخذه المتكلمون عنه(عليه السلام) فنظموه وقرروه في كتبهم) شرح نهج البلاغة ج١٣ ص٣٦.

٢. إن مسالة الحركة إذا وردت على الموجود فان السكون وارد عليه أيضا لأنهما صفتان متلازمتان، حيث انه لا حركة إلا بعد سكون ولا سكون إلا بعد حركة.

٣. وهذان نقيضان لا يجتمعان.

(وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ).

ولو فرض أن الحركة والسكون لم يكونا لازمين للذات الإلهية قبل الخلق، ولكن جريا فيها بعد أن أودعهما في خلقه، فان الإمام(عليه السلام) ينقض هذا الفرض من حيث أن ذلك يستلزم طروء التغيّر على الذات الإلهية: (إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ)، والتغيّر يتعارض تماما مع الأزل الذي لا يقبل التبدّل مطلقا: (وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ) والأزليّة من اللوازم الضرورية للذات الإلهية، لأنها إذا لم تكن أزلية فهي مخلوقة بداهة، على أن هنالك تفسيرا آخر لكلامه(عليه السلام) أكثر تعقيدا ذكره ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة يمكن الاطلاع عليه في محله[1].

أما في إثبات التوحيد للذات الإلهية، فنذكر ما جاء في الخطبة الأولى من نهج البلاغة حيث قال(عليه السلام): (أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ

١. شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ١٣/ ٣٦.

جَهِلَهُ وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ)[1].

إن نفيه عليه السلام للصفات ـ بما هي وجودات مشخصة بذاتها ـ عن الذات الإلهية يُعد من المقاصد العقلية العالية في بحوث التوحيد، حيث يبين أن التوحيد الحقيقي يستلزم التسليم بتنزيه الذات عن كل إضافة يتصورها الإنسان، لأنه لو اعتبرت صفات الله تعالى كأشياء تضاف إلى الذات الإلهية فان ذلك يعني أنه سبحانه مركب من شيئين هما الذات والصفات: (فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ) والمركب يعني انه مكون من أجزاء عدة: (وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ) ونسبة الأجزاء للذات الإلهية يعني الجهل بها، وذلك يستلزم لا محالة تجسيمها وتحييزها في جهة: (وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ) وهذا يعني انه محدود بحدود تجعله يعد إلى جانب الأشياء المجاورة له: (وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ) والعدد في التوحيد الإلهي باطل كما بيّنا في المطلب السابق.

لذلك فان علماء الفلسفة قد أشاروا إلى أن صفات الله تعالى جميعا هي عين ذاته، وبعبارة أخرى: لا وجود في الواقع إلا للذات الإلهية

١. نهج البلاغة ١: ١٥.

منزهة عن كل إضافة خارجية، وإنما أطلقت هذه الصفات من باب المجاز للتعبير عن أن هذه الذات حيّة عالمة قادرة...الخ.

وفي خطبة اخرى لهعليه السلام يقول: (وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْآجَالُ وَالْأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السِّنُونَ وَالسَّاعَاتُ، فَلَا شَيْءَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ...)[1] فهذا مقطع يقف المتأمل أمامه خاشعا وممتلئا هيبة أمام عظمة الذات الإلهية القاهرة، وأغلب الظن أن مثل هذا الكلام لا يجرؤ احد على التصريح به بهذه الصورة، سواء كان فيلسوفا مفلقا أم متكلما مفوّها، لأنه يحتاج إلى تجرد تام في التوحيد وبعد كامل عن الأوهام في المعرفة العقلية، ومعرفة حقيقية بمصير الوجود بعد فناء العالم، كما انه يستلزم معرفة دقيقة حول علاقة الكون بالخالق سبحانه، لذا تجد انهعليه السلام أردف قوله السابق بكلام جليل يعد أدلة برهانية تامة على ما تقدم، فقال: (.. بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى الِامْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا، لَمْ يَتَكَاءَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ[2] مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ

١. نهج البلاغة ٢: ١٢٤.

٢. يؤده: يثقل عليه، قال تعالى: (ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم).

سُلْطَانٍ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلَا لِلِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدٍّ مُكَاثِرٍ وَلَا لِلِاحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ وَلَا لِلِازْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ وَلَا لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا لَا لِسَأَمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا وَلَا لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوَهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَى حَالِ اسْتِئْنَاسٍ وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنًى وَكَثْرَةٍ وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ)[1].

١ نهج البلاغة ٢ : ١٢٥

رابعا: علاجه عليه السلام للوساوس الفكرية

إن الإمام عليا عليه السلام مضافا إلى الحقائق العقلية التي طرحها في كلمات نهج البلاغة، قد أشار إلى نقطة مهمة ومحورية في مضمار العقائد الإلهية، على المسلمين جميعا أن يتبعوها حرفيا، وهي المخرج من الشبهات العقائدية التي قد تعلق في ذهن المسلم نتيجة لتعرضه للعلوم العقلية الإلهية، وهذه النقطة تتمحور حول إهمال تلك الشبهات وعدم الالتفات إليها برجاء معرفتها بعد أن يخلو الذهن من الملابسات والوساوس، وهذا الأسلوب يُعدّ من أفضل العلاجات للتخلص من هذه المزالق، لان الإصرار على مماطلة هذه الشبهات ما هو إلا نسج مزيد من خيوط العنكبوت على فكر الإنسان حتى يختنق بها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: (وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالِاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ، وَابْدَأْ

قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ.

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالِابْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ)[1].

وفي ختام هذا الموضوع، نشير إلى ان أثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى لا ينحصر فقط بالقوانين والمعارف الفلسفية وحسب، بل هناك طريق أفضل واقرب إلى اليقين منه يتمثل بملاحظة الكمال ودقة الصنع في هذا الكون المخلوق، وان كان بملاحظة جوانب معينة منه فقط ـ كالإبداع

١. نهج البلاغة ٣: ٤٢.

في خلق الإنسان ـ وقد ندب القران الكريم في العديد من آياته الكريمة إلى التدبر في هذا المضمار للحصول على تلك النتيجة السامية ـ الايمان بوجود الخالق ومعرفة صفاته ـ ولعل هذا التفكر بهذه الطريقة يؤدي ـ مضافا إلى اليقين بأصل وجود الخالق ـ إلى التعرف على جانب من مقدار حكمته وقدرته وعلمه ورحمته، وبالتالي يقربنا من حبه، لان الصفات الجمالية والجلالية لله تتجلى في خلقه، والوقوف على هذه الصفات يؤدي إلى محبة مالكها سبحانه وتعالى.

لذلك فان أمير المؤمنين عليه السلام قد ركز على هذا الجانب كثيرا في باب إثبات الخالق وصفاته الحسنى، ووظف خطبة كاملة تعد من اجلّ الخطب المروية عنه في هذا الباب في كتاب نهج البلاغة، هي الخطبة المعروفة بـ(خطبة الأشباح)[1].

١. نهج البلاغة ١: ١٦٠

المبحث الثالث

من وحي "النهج" في السياسة

تمهيد:

وضعت الشريعة الإسلامية مسألة الإصلاح الاجتماعي العام نصب عينيها، وجعلته ضمن أولوياتها على شتى المستويات، لما لهذا الأمر من تأثير عظيم على حاضر ومستقبل الأمة من ناحية، ولما له من تأثير مباشر وغير مباشر على الوضع المعنوي والمادي لأفراد المجتمع من ناحية أخرى.

واحد أهم جوانب مسالة الإصلاح هذه: التأسيس المحكم لأجهزة الحكم وإدارة البلاد التي وجدت لحفظ المصلحة العامة للشعب وتسيير شؤونه، والتي يعبر عنها في المصطلحات والأدبيات المعاصرة بسياسة الدولة.

إننا نتلمس من تراثنا الإسلامي الأصيل الوارد عن منابع الوحي الأصيلة والجاري على يدي كبار الشخصيات الإسلامية العظيمة هذا التأسيس المتكامل للدوائر والمؤسسات، فكانت هناك مجموعة من الضوابط والقوانين تحكم القبضة عليها وتصونها من الزيغ والتلكؤ، بما يضمن ديمومة الفائدة التي يرجى أن تقدمها لعامة الناس.

وفي هذا المقام، آثرنا أن نمر بشكل مقتضب على جملة من المعالم التي نتلمسها في كتاب نهج البلاغة الخاصة بهذا الموضوع، لنستوحي ما يمكن استيحاءه من نهج أمير المؤمنين عليه السلام في مسألة حيوية وحساسة تعيش مع الإنسان في حاضره ومستقبله.

اولا : التعاليم الأخلاقية في السياسة

إن احد الأمور المهمة التي ينبغي ملاحظتها في كتاب نهج البلاغة الشريف، المفاهيم الأخلاقية التي ضمّنها أمير المؤمنين عليه السلام في العديد من كتبه ورسائله التي تخص شؤون السياسة ولوازمها، سواء تلك التي أرسلها إلى عماله، أم إلى أعدائه، بحيث نجد أن المفاهيم الأخلاقية تمثل جوهر تلك الرسائل والكتب.

إن دراسة هذا الجانب المهم في رسائل وكتب الإمام عليه السلام يوقفنا على حقيقة مهمة في الدين الإسلامي، وهذه الحقيقة تتمثل بقيام الشريعة الإسلامية على أساس واحد تتفرع منه جميع المتطلبات التي يحتاجها الإنسان خلال مسيرة حياته، بحدودها وتفاصيلها الدقيقة.

وهذا الامر قد يكون مغفولا عنه بالنسبة للكثير من الناس، باعتبار انهم لا يجدون تلازما بين المفاهيم الاخلاقية السلوكية التي تخص الفرد، وبين الاساليب الواجب اتباعها في التعاملات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، باعتبارها امورا اجتماعية عامة لادخل للسلوك الفردي بها.

وكمثال على الحقيقة التي ذكرناها، لنقرأ عينة من رسالة أمير المؤمنين لعامله مالك الاشتر حين ولاه مصر، حيث قال عليه السلام: (لْيَكُنْ

أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ، يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ. أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ[1] عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً وَ مَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَئِمَةِ وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ..)[2].

إن الكثير من الحكّام في بلدان العالم ـ وبخاصة في زماننا هذا ـ يرون أن من الضروري استخدام وسائل وأساليب تقع على العكس تماما من المفاهيم الأخلاقية التي أمر بها امير المؤمنين عليه السلام في رسالته هذه، وقد

١. بمعنى تغافل عن كل امر لم يتضح لك من الامور .

٢. نهج البلاغة ٣: ٨٦.

يعتبرون أن استعمال مثل هذه القيم في مثل هذا المضمار ما هو إلا ضرب من الخيال.

فكثير من الساسة يرون مثلا ان الاكثر وشاية بالناس لفضح معايبهم هو الذي يصلح أن يتخذ خليلا من قبل الحاكم، وان من الحنكة تصديق السعاة والنمامين لتلافي فساد أمر الأمة، ومن الحكمة تقريب وزراء الحكام السابقين – وان كانوا ظالمين - باعتبارهم اكثر ممارسة لمتطلبات الحكم وادارة المجتمع.

في حين ان الإمام(عليه السلام) يضع ما قدمته الشريعة السماوية من تعاليم أخلاقية على طاولة السلوك الفردي والاجتماعي على حد سواء، بحيث يكون تطبيق المنهج المخصص للفرد هو عين الصواب الذي يصلح في التعامل مع شؤون الامة، بل ان تطبيق المفاهيم الاخلاقية أوكد على الحاكم باعتبار موقعه الحساس، قال(عليه السلام): (لْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا).

وانظر الى قوله(عليه السلام): (فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ) كيف يشير يوضوح الى رجوع تعاليم الاسلام كافة الى اصل عقيدة الايمان بالله سبحانه وتوحيده، هذا من ناحية، ومن

ناحية اخرى فانه قد ضمّن النهي عن مساوئ الاخلاق في اطار سياسة العباد والبلاد.

ان وضع الصفات الإنسانية بعامة على المحور الاسلامي الاوحد ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ يجعل من كل التعاملات السياسية والاقتصادية والاجتماعية تدور دائما حول هذا المحور المقدس، ما يجعلها تنتظم في اطار الحق والعدل والمساواة وحفظ الحقوق، وتجنب الظلم والبغي والعدوان.

حسن الظن بين الوالي والرعية

ومن اهم الاركان التي يقوم عليها نظام الحكم الاسلامي من وجهة النظر الاخلاقية التي ذكرناها، هو حسن الظن المتبادل بين الوالي ورعيته، لان إساءة الظن إذا وقعت بينهما، جرّ ذلك إلى مفاسد قد تتفاقم مع مرور الوقت، ولا تتوقف حتى تنتهي باقتلاع النظام او اضعافه.

لذا كان من أهم واجبات الحاكم الاسلامي هو الحفاظ على هذه الخصلة ـ حسن الظن المتبادل ـ حيّة بينه وبين الرعية.

وقد اكد الامام امير المؤمنين عليه السلام في مواضع عدة من النهج على هذه الحقيقة، منها قوله لمالك الاشتر: (وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى

حُسْنِ ظَنٍّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَتَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلًا وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ)[1].

وقال عليه السلام: (وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ وَ حُسْنِ الظَّنِّ بِكَ)[2] وقال عليه السلام: (وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ)[3].

١. نهج البلاغة ٣: ٨٨

٢. نهج البلاغة ٣: ٩٢

٣. نهج البلاغة ٣: ١٠٥

ثانيا : تعيين رأس الحكم في الإسلام

لا يخفى على المتتبع البصير لأسس فكر الدين الإسلامي الحنيف، انه يعتمد في حركته الفردية والاجتماعية على تطبيق مفردة الحق وفق المنظور العقلي السليم، بعيدا عن كل اعتبارات أجنبية أخرى، كالحرية الشخصية وأمثالها من المفردات التي تقدسها وتحترمها طوائف عديدة من الناس.

لذلك نجد أن مدرسة اهل البيت عليهم السلام كانت ولا تزال قائمة على فكرة: ان يكون رأس الحكم في الأمة الإسلامية انسانا معصوما معينا من قبل الله تعالى، لبسط العدل وفرض الحق ولو كره الناس الحق لثقله، قال امير المؤمنين عليه السلام: (إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَ إِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ)[1] وهذه الفكرة ـ شرط العصمة في الحاكم الاسلامي ـ تساوق حكم العقل والتجربة معا.

فحتى لو كان اختيار رأس نظام الحكم مبنيا على المشورة ـ التي يعبر عنها بالانتخاب الديمقراطي في الاصطلاح المعاصر ـ فان اختيار أهل الشورى انفسهم لا بد ان يكون وفق تشخيص دقيق لقابلياتهم على اختيار الاصلح للحفاظ على المجتمع قويما وفق المعايير الإسلامية

١. نهج البلاغة ٤ : ٩٠.

الصحيحة، وهذا التشخيص لا يكون الا من قبل شخص أو أشخاص أعلى من اهل الشورى رتبة في الفهم، وهكذا... ومثل هذا الامر يؤدي إلى التسلسل اللانهائي الباطل كما هو واضح.

وحتى في مضمار عمل الحاكم تحت رقابة مجلس شورى، فان الآراء التي تتمخض عن قرارات المتشاورين تحتاج إلى من يضبطها على المنهج الأصلح بعيدا عن كل منافع شخصية، وهذا شرط لا توفره إلا العصمة.

ولو اسند تعيين رأس الهرم في حكم الامة الاسلامية الى مشاورة المسلمين جميعا - اذا امكن تحقيقها فعلا[1] - فان ذلك لا يفي بالحفاظ على متبنيات الشريعة الاسلامية التي يراد لها ان تتحقق في المجتمع الاسلامي، لان غالبية الناس لا يحبون امر الحق والعدل، قال تعالى: **(وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)** (المؤمنون/٧٠)، وبذلك يستحيل أن تكون نتيجة مشورة عامة الناس متساوقة مع تطبيق مفردة الحق، وبالتالي لا يتحقق امر انتخاب الحاكم الاصلح في كثير من الاحيان.

١. قال امير المؤمنين(عليه السلام) في النهج: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ، فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ، وَ لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ وَ لَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ).

ومما تقدم نجد ان نظام الشورى لتعيين راس الحكم الذي ادعته طائفة واسعة من المسلمين ليس له قيمة عملية في المنظور الاسلامي.

وكم من الكلمات لامير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة تفصح عن شجبه لاحقية خلافة الخلفاء بناء على منهج الشورى، من ذلك خطبته الشقشقية الصريحة في المطلب، وقوله في كتاب أرسله الى معاوية: (وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغَيْتُ فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ، "وَ تِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا".

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أُبَايِعَ، وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا وَلَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا...)[1].

فانظر الى إشارته الصريحة عليه السلام إلى انه إنما أُجبر على المبايعة مكرها لانه لم يكن يقبل بمثل هذه الخلافة ولم يعترف بمشروعيتها، وفي هذا الكتاب جواب على من يدعي ان الامام علي عليه السلام كان قد بايع الخليفتين غير مكره.

١. نهج البلاغة ٣: ٣٣.

كما ان هذه الكلمات الرائعة تقرر صراحة المنهج الذي اتبعه أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم في رفضهم الأعزل للانحراف عند ضرورة تقديم الأهم على المهم.

فان قيل: ان أمير المؤمنين عليه السلام كان قد احتج على معاوية في قضية الشورى والإجماع على خلافته، وذلك في رسالته المروية في نهج البلاغة حيث قال: (إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضًا، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى)[1] فكيف يحتج الإمام على معاوية بأمر الشورى والإجماع؟

والجواب عن ذلك: ان المتأمل في كلماته عليه السلام هذه ـ إن صحت نسبتها اليه ـ يعرف بما لا يقبل الشك انه يلزم معاوية بما ألزم به نفسه؛ من الإيمان بان الخلافة لا تكون إلا بالشورى والإجماع، ومحاججة المرء لخصومه بمنهجهم الفكري لا يقتضي بالضرورة إيمانه بهذا المنهج.

١. نهج البلاغة ٣: ٧.

ثالثا: في صفة الوالي الإسلامي

تحتل المسؤولية التي يتصدى فيها الإنسان لإدارة سياسة العباد فيما يخدم مصالحهم العامة والخاصة مكانة مهمة وموقعا جسيما، اذ تحتاج لمن يتصدى لها كفاءة ذهنية ونفسية عالية، حيث يتوقف على شخصيته نجاح السياسة او فشلها، باعتباره يمثل العقل المدبر والمحرك الأساسي لهذا الموقع الحيوي.

ان موقع الإنسان في المسؤولية يتطلب منه أن يكون ملمّا بمجموعة من الأمور، تأتي في اولولياتها الحكمة والفطنة، لان هذا الطريق فيه العديد من المكاره والمشاكل، وبخاصة انه يتعامل مع طبقة واسعة من الناس، كل منهم يحمل مزاجا مختلفا، وتوجها معينا، فالأمر يتطلب منه أن يدير كل هؤلاء ويحفظ كيانهم ويدفع عنهم المكاره.

ولا يتوقف الأمر في المنهاج الإسلامي في مجال سياسة العباد عند حفظ مصالح الناس الاقتصادية والعسكرية، بل يتعداه إلى أن يحمل الوالي الإسلامي الناس على الاستقامة على جادة الشريعة ويحثهم على الترقي والسلوك الأحسن، لذا فالمهمة في هذا المضمار مضاعفة ودقيقة.

وعليه فان الوالي يحتاج ـ مضافا إلى تقوى الله سبحانه والإخلاص له ـ إلى إلمام واسع بما هو خائض فيه من العمل، واختصاص في مضمار

نشاطه، والأكثر معرفة بمتطلبات عمله أكثر من أي شخص آخر، أو يكون على الأقل خبيرا بالشخص الأكثر كفاءة لأداء هذا التكليف أو ذاك، حتى يكون مرجعا أساسيا وركنا منيعا لحل أي مشكلة تتعلق بشؤون العباد، وحتى لا يبقى المرجع الأساس مفقودا يتأرجح بين هذا وذاك، ما يؤدي إلى الفوضى والعشواء.

وان من أهم ما ينبغي أن يمتاز به الوالي، سعة صدره وحلمه وصبره، حتى يكون عادلا في حكمه وقراره، ويعطي لكل ذي حق حقه، فلا تميله ساعة غضب عن جادة الصواب، فيجور في الحكم، أو يستعجل في العقوبة، وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المضمار قوله لعامله مالك الاشتر: (لا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً)[1] وقوله: (أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ)[2]، وقوله في موضع آخر من النهج: (آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ)[3]، وقال عليه السلام: (امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ وَسَوْرَةَ حَدِّكَ وَسَطْوَةَ يَدِكَ وَغَرْبَ لِسَانِكَ وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفٍّ الْبَادِرَةِ وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الِاخْتِيَارَ، وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ)[4].

---

١. نهج البلاغة ٣: ٨٤.

٢. المصدر نفسه ٣: ٥٦.

٣. المصدر نفسه ٤: ٤٢.

٤. المصدر نفسه ٣: ١٠٩.

كما أن الوالي بحاجة إلى أن يعطي لكل ذي حق حقه، فلا يتساوى عنده المثابر والخامل، والنشيط والمتكاسل، فان إعطاء كل ذي حق حقه يدعو إلى استزادة المحسن في إحسانه، وترك المسيء لإساءته، قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: (لَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ)[1].

واحد الأعمدة التي تقوم عليها خصائص الوالي في نظر الإسلام: هو التواضع للناس كافة، فهذا الحصن النفسي الذي يتحلى به الإنسان، يجنبه الانزلاق في مهاوي التكبر والاعتلاء، والجفاف الروحي، وبخاصة أن موقع المسؤولية بطبيعته يفسح المجال واسعا لتسويلات الشيطان والنفس الإمارة بالسوء، لكي ينفخ في الإنسان روح العلو والخيلاء والترفع، قال عليه السلام في مقام الحث على تفقد حاجات الناس من قبل الوالي: (وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ وَ تُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ

١. نهج البلاغة ٣: ٨٨.

مُتَتَعْتِعٍ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ)[1].

ولعل من اهم مفردات السلوك الأخلاقي التي تنبغي للإنسان وهو في موقع الولاية: إنصاف الناس من نفسه فيما يحب ويكره، وهو ان يجري على نفسه ما يجري على اضعف الناس من رعيته، وقد ضرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المثل الأروع في هذا المجال وهو القائل: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ)[2] والقائل: (أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ)[3].

على ان انصاف الناس من النفس يعد من اصعب الامور تطبيقا على واقع السلوك، فقد روي عن الامام أبي عبد الله عليه السلام: (الا أحدثك بأشد ما فرض الله عز وجل على خلقه؟) قلت: بلى، قال: (انصاف الناس من نفسك، ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كل موطن)[4].

ومن الكلمات التي وردت عن امير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، والتي تفيد في هذا الموضوع ما كتبه عليه السلام الى عامله "ابن حنيف"

١. نهج البلاغة ٣: ١٠٢.

٢. المصدر نفسه ٢: ١٨٨.

٣. المصدر نفسه ٣: ٧٢.

٤. الكافي للكليني ٢: ١٤٥.

حينما بلغه انه اجاب دعوة اناس اشراف الى مائدة طعام فاخرة، حيث اورد في كتابه ذلك العديد من الوصايا الاخلاقية التي ينبغي للوالي ان يتحلى بها وهو في موقعه ذلك.

واذا كانت تلك الشروط وامثالها لا بد من ان تتوفر لدى الانسان وهو في منصب الحكم، فمن الواضح أن المؤمن الحقيقي هو اولى الناس بالتصدي لهذا الموقع، باعتبار ان المؤمن يجمع كل الصفات النفسية التي تؤهله لهذا الامر الحيوي، وبخاصة سعة الصدر وحسن الخلق والانصاف من النفس.

ان الرقابة الالهية التي يشعر بها المؤمن في كل لحظة من لحظات حياته ـ انطلاقا من يقينه بالغيب ـ تجعله يسير دائما على الخط المستقيم، فيخلص في عمله ايما اخلاص، ويبذل من نفسه ما لا يتمكن غيره من بذله، واذا ما بدرت منه زلة او خطأ، اسرع لتدارك الامر قريبا، ومهما كانت الضغوط التي يتعرض لها الانسان وهو في موقع المسؤولية، يبقى المؤمن الحقيقي في مأمن من الانجراف وراء المصالح الشخصية او النزوات الذاتية او العزة بالاثم، بل يبذل التسامح والتودد، حتى لو كان الامر على حساب مصلحته الشخصية، قال تعالى في صفة المؤمنين: (**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**)(الحشر/٩).

رابعا : اتهام الإسلام بالعجز السياسي

يرى الكثيرون أن السياسة أمر لا يتناغم مع المفاهيم الروحية والأخلاقية التي امرت بها الشريعة السماوية، وان أعمال مثل هذه المفاهيم لا ريب وان تسقط بصاحبها في آخر المطاف، وان السياسة تحتاج بالضرورة إلى المكيدة والخداع ومصاحبة العدو لجلب منفعة الأمة ودفع الضرر عنها.

ومن هذا المنطلق، يعتقد كثيرون أن السياسة التي انتهجها أمير المؤمنين عليه السلام في قيادته للأمة الإسلامية في عهده كانت غير ناضجة، ويرون ان الدليل على ما يعتقدونه قصر عمر الخلافة التي امسك امير المؤمنين عليه السلام مقاليدها، وكثرة المشاكل التي عانى منها خلال هذه الفترة.

وبخاصة في حربه مع معاوية بن ابي سفيان، التي كانت تتطلب استخدام الحيلة والمكر لسحب البساط من تحته، وبالتالي يجنبه العديد من المشاكل على رأسها حرب صفين المهولة.

والجواب على ذلك واضح إذا ما راعينا ما قدمناه في اول الكلام، من ان الاسلام يريد من رأس الحكم الاسلامي ان يطبق مفردة العدل، ويقدمها على كل مفردة سواها، والامام امير المؤمنين عليه السلام في فترة حكمه ضرب اروع الامثلة للناس كافة في تطبيق السياسة النقية عن كل شائبة

أخلاقية او إنسانية، حتى لو كلف ذلك قصر مدة حكمه، فان الحكم في النهاية ما هو الا وسيلة وليس غاية.

اما المشاكل التي واجهها خلال فترة حكمه، فهو انما تصدى لها عن عمد واصرار، التزاما وتطبيقا لشريعة الاسلام الحنيف، وهو الاولى بتطبيق مفرداتها بحذافيرها خلال تلك الفترة الحساسة من عمر الاسلام، لبيان الواقع العملي والمصاديق والواقعية لاحكام الاسلام التشريعية، قال عليه السلام لاصحابه في امر قتال معاوية حينما لم ينزل على بيعته: (لَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَ عَيْنَهُ وَ قَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَ بَطْنَهُ فَلَمْ أَرَ لِي فِيهِ إِلَّا الْقِتَالَ أَوِ الْكُفْرَ بِمَا جَاءَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله...)[1].

كما عبر أمير المؤمنين عليه السلام بنفسه عن التزامه بالتعاليم الشرعية في أعلى مستوياتها الفقهية والأخلاقية بقوله: (وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ)[2].

ويبين من كلامه هذا، ان الامام لا يُستغفل من خلال تصرفات شخص كمعاوية، فان المؤمن ينظر بعين الله تعالى، ولا تفوته مثل هذه

١. نهج البلاغة ١: ٩٤.

٢. المصدر نفسه ٢: ١٨٠.

الحيل، كيف وامير المؤمنين عليه السلام يقول: (اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ)[1] ولكن المشكلة ان معاوية لا يتورع عن ارتكاب المنكر من الافعال والباطل من الاقوال، وهذا مما لا يرتضي الامام عليه السلام ارتكابه، مهما كانت النتيجة المترتبة على ذلك.

المشكلة لا تتعلق بتعاليم الإسلام:

لقد بين امير المؤمنين عليه السلام حقيقة الحال في هذا المضمار، واجاب عن امثال تلكم الدعوى صريحا في نهج البلاغة، وفحوى الامر ان المشكلة لا ترتبط بالمنهج الاسلامي في مجال السياسة، ولكن القضية تتعلق بجماعة المسلمين انفسهم.

فقد أشار عليه السلام إلى أن هذه القضية لا تكمن في عدم تمكن الدين الاسلامي من وضع الحدود الفضلى لسياسة أمر العباد في سلمهم وحربهم، ولكن المشكلة تتمثل في عدم انصياع أبناء الأمة لأوامر إمامهم والتسليم له في كل ما يأمر به، قال عليه السلام: (يا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ حُلُومُ الْأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً،

١. نهج البلاغة ٤ : ٧٣.

وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ، حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ.

لِلَّهِ أَبُوهُمْ وَ هَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَ أَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ وَ هَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ)[1].

فالكلام المتقدم يبين صراحة ان المشكلة لا تتعلق بشخص الامام ولا بمنهجه في الحكم، ولكن المشكلة بالطاعة والانصياع لاوامر الحاكم الشرعي.

وفي المصاديق التاريخية ما يشير بوضوح الى هذه الحقيقة، ففي حرب صفين، كان من الممكن القضاء على رأس النفاق معاوية، لولا عصيان طائفة كبيرة من اتباع الامام عليه السلام امره، ولولا ذلك لم يكن لمكائده بعد ذلك وجود، ولم يكن لحرب النهروان من وقيعة، ولم يكن ليتأسس مذهب الخوارج، ولم يستطع ان ينال معاوية امارة الامة الاسلامية بالصلح مع الامام الحسن عليه السلام، ولم يكن يزيد ليصل الى سلطة الحكم من بعد ابيه، ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام أن يقتل في طف كربلاء.. فانا لله وانا اليه راجعون.

١. نهج البلاغة ١: ٧٠.

فمن خطبة له عليه السلام بعد ليلة الهرير وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندرِ أي الأمرين أرشد، فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: (هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ أَمَا وَ اللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ وَ إِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ وَ إِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ لَكَانَتِ الْوُثْقَى وَ لَكِنْ بِمَنْ وَ إِلَى مَنْ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَ أَنْتُمْ دَائِي كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ وَ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا)[1].

وقال عليه السلام: (أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي، وَ لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي، اسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا وَ دَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَ جَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَشُهُودٌ كَغُيَّابٍ وَ عَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا وَ أَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبَا تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ وَ تَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً وَ تَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الْحَنِيَّةِ عَجَزَ الْمُقَوِّمُ وَ أَعْضَلَ الْمُقَوَّمُ أَيُّهَا الْقَوْمُ

١. نهج البلاغة ١: ٢٣٤.

الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ الْمُبْتَلَى بِهِمْ أُمَرَاؤُهُمْ صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَ أَنْتُمْ تَعْصُونَهُ وَ صَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَ هُمْ يُطِيعُونَهُ لَوَدِدْتُ وَ اللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ فَأَخَذَ مِنِّي عَشَرَةً مِنْكُمْ وَ أَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ)[1].

إن أهم ما نستفيده من هذا الموضوع هو الحرص على طاعة الحاكم الشرعي طاعة ليس فيها تعذير، وان في خلاف ذلك فشل الأمر في سياسة الدولة الاسلامية، وان الدين الحنيف لا يرتضي ـ في مثل هذه الحال ـ أن يتدارك رأس الحكم الإسلامي الأمر بتضييع حدود الدين وتعاليمه.

١ نهج البلاغة ١ : ١٨٧

خامسا: الدور الرقابي في مؤسسات الدولة

ان بناء الجهاز الرقابي على المؤسسات والدوائر التي وجدت لخدمة الصالح العام، احد المفاصل الأساسية لتشييد بناء الدولة الاسلامية المحكم.

ولعل احد أوضح الآثار التي تدلنا على تأكيد الإسلام على بناء الدور الرقابي للمؤسسات الحكومية ما كتبه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الاشتر(رضوان الله تعالى عليه) الوارد في نهج البلاغة، حيث جاء عنه عليه السلام في باب علاقة الوالي مع العمّال الذين يوكل إليهم تولي شؤون الناس قوله: (ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ)[1]، فأمره عليه السلام بضرورة إرسال العيون على العمال أمر واضح في تفعيل الدور الرقابي لمؤسسات الدولة، كما انه في الوقت نفسه يعطينا المواصفات التي ينبغي ان يتحلى

١. نهج البلاغة ٣: ٩٦.

بهـا القـائمون علـى هـذا العمـل، إذ لا بـد ان يكونـوا مـن أهـل الوفـاء والصـدق، لأنهـم ان لم يكونـوا كـذلك ضـللوا الأمـور وشـبهوها، وفي ذلك تغييب للحق وضياع الحجة.

واذا ما ثبت لدى الحاكم جور الولاة وتقصيرهم من خلال العيون، كان لزاما عليه ان يتخذ فيهم الموقف المناسب، واميـر المؤمنين عليه السلام يحـذر مـن التـواني عـن ذلـك، قـال عليه السلام لمالـك الاشـتر: (وَإِيَّـاكَ وَالِاسْـتِئْثَارَ بِمَـا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَـأْخُوذٌ مِنْـكَ لِغَيْـرِكَ وَعَمَّـا قَلِيـلٍ تَنْكَشِـفُ عَنْـكَ أَغْطِيَـةُ الْـأُمُورِ وَيُنْتَصَـفُ مِنْـكَ لِلْمَظْلُومِ)[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما يأمر به الإمام عليه السلام جاء على خلاف ما يدعيه البعض من أن إرسال العيون على العمال في البلاد أمر يستهجنه الإنسان، لأنهم يعتبرون بث العيون ونقلهم الأخبار للحاكم نوعا من الوشاية وإفشاء الأسرار والنفاق تقربا الى الحاكم، في حين أن الأمر على عكس ذلك بالنظر إلى أهمية ضبط العمال في البلاد ورقابة سيرهم على الصراط المستقيم، ومن دون ذلك قد لا يؤمن الوالي من الانحراف والزيغ بعيدا عن أعين الرقباء، فتظلم العباد، وتفسد البلاد، ولا من سامع لشكوى العامة ولا من منقذ لظلامتهم، قال عليه السلام: (فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ

١. نهج البلاغة ٣: ١٠٩.

فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ).

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام، بأننا نجد ـ من خلال استقراء المفاهيم الإسلامية العامة التي تسالم على صحتها كل المسلمين ـ بان عمل الدور الرقابي في مفاصل الدولة يرتبط ارتباطا وثيقا بأحد أهم فرائض الدين الإسلامي الحنيف، ألا وهي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تأخذ ـ بطبيعتها ـ حيزا واسعا في مجال الإصلاح الشامل، ابتداءً من تهذيب الذات وانتهاءً بإصلاح المجتمع والقائمين على تسيير شؤونه بشكل عام، قال تعالى: **(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**(التوبة/ ٧١).

ان الدوائر والمؤسسات الرقابية تتحمل المسؤولية الشرعية قبل أن تتحمل المسؤولية القانونية، حينما التزمت بحمل أمانة هذا الدور الحساس بشكل دقيق، وهي مسؤولة عن العهد الشرعي الذي يكلفها بها الحاكم الإسلامي لانجاز هذا العمل الشاق على أتم وجه، لا سيما ان العاملين في هذا المجال معرضون لشتى أنواع الإغراءات التي تحاول ان تحرفهم عن أداء الأمانة، ولكن على الرغم من كل ذلك لا عذر لأحد

منهم عن التخلف عن أداء هذا الواجب المقدس في كل الظروف والأحوال، قال امير المؤمنين عليه السلام في النهج: (وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الْأَئِمَّةِ)[1].

حرية التعبير في حكومة أمير المؤمنين

حقق شكل الحكم الذي أسسه رسول الله صلى الله عليه وآله في امة الاسلام أروع أشكال حرية التعبير بين أفراد الأمة، وبالأخص إذا نظرنا إلى ذلك الزمان الذي لم تصل فيه الأمم مرحلة النضوج الفكري والثقافي الذي تعيشه اليوم.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله جلس يوما يقسم الغنائم بين المسلمين، فجاءه رجل فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: (ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟) فأراد احد أصحاب النبي قتله، فنهاه الرسول عن ذلك[3].

ولعل من أهم أنواع حرية التعبير الذي عرف في حكومة الرسول هو: حرية التعبير السياسي، فعلى الرغم من حساسية هذا الجانب

١. نهج البلاغة ٣: ٢٧.

وصعوبته، ولكنه تجسد بأبهى صوره في زمان حكم الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، الذي يمثل حكمه مرآة لحكم خاتم الأنبياء(صلى الله عليه وآله).

فمن المسلّم به تاريخيا، أن الجماعة المعروفة بالخوارج كانت جماعة معارضة لحكومة أمير المؤمنين(عليه السلام)، وأن أفرادها كانوا يقومون تحت منبر الإمام(عليه السلام) ويجاهرون برأيهم السياسي علناً، فلم يكن منه(عليه السلام) إلا أن يرد حجتهم بالحجة، ويفضح انحرافهم بالفكر والبيان، دون أن يقمعهم بالسيف أو يمنع عنهم العطاء.

فمن كلام له(عليه السلام) في الخوارج لما سمع قولهم "لا حكم إلا لله" قَالَ: (كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَا إِمْرَةَ إِلَّا لِلَّهِ وَ إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ وَ يَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ وَ يُبَلِّغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ وَ يُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ وَ يُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ وَ تَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَ يُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ).

بل في بعض الحالات نجده(عليه السلام) يتعامل معهم بالعفو والصفح، حتى روي أن احد الخوارج قال عنه في حضرته: قَاتَلَهُ اللَّهُ كَافِراً مَا أَفْقَهَهُ! فوثب القوم ليقتلوه، فَقَالَ الإمام(عليه السلام): (رُوَيْداً، إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ)[1].

١. نهج البلاغة ٤: ٩٩.

ولكن حينما بلغ الأمر بالخوارج أن يتجاوزوا مسالة حرية التعبير، فيجيّشوا الجيوش لقلب النظام الإسلامي، ويزعزعوا أمن المسلمين، حتى بلغت بهم الجرأة أن يقتلوا عبد الله بن خباب ويبقروا بطن امرأته ويصلبوا جنينها على رؤوس الرماح، لم يتوان أمير المؤمنين عليه السلام عن قتالهم، ليريح البلاد والعباد من شرهم.

المحتويات

● تقديم	٥
● المبحث الأول: من وحي النهج في الأخلاق	٧
● تمهيد	٧
● أولا: اصلاح الذات هو الأهم	١١
● ثانيا: الدعوة الى التقوى	١٥
● ثالثا: محطات تربوية في نهج البلاغة	١٩
● الهوى وطول الأمل	١٩
● الزهد في الدنيا	٢٠
● ذكر الموت	٢٤
● رابعا: الترغيب بالآثار العاجلة	٣١
● المبحث الثاني: من وحي النهج في الفلسفة	٣٤
● تمهيد	٣٤
● أولا: نظرة على أسس الفلسفة الإلهية	٣٨
● ثانيا: تميز النهج في العلوم العقلية	٤١
● ثالثا: نبذة من كلامه عليه السلام في الإلهيات	٤٣
● رابعا: علاجه عليه السلام للوساوس الفكرية	٥٢
● المبحث الثالث: من وحي النهج في السياسة	٥٥

● تمهيد	٥٥
● أولا : التعاليم الإخلاقية في السياسة	٥٧
● حسن الظن بين الوالي والرعية	٦٠
● ثانيا : تعيين رأس الحكم في الإسلام	٦٢
● ثالثا : في صفة الوالي الإسلامي	٦٦
● رابعا : اتهام الإسلام بالعجز السياسي	٧١
● المشكلة لا تتعلق بتعاليم الإسلام	٧٣
● خامسا : الدور الرقابي في مؤسسات الدولة	٧٧
● حرية التعبير في حكومة أمير المؤمنين	٨٠